الفصل الثامن

روسيا والإسلام:
بيزنطة ما زالت تحيا!

روسيـــا والإســـلام

لقد عاشت روسيا جنبا إلى جنب مع الإسلام لما يقرب من ألف عام، إذ يقيم بها أكبر تجمع للمسلمين بالمقارنة بأية دولة غربية أخرى – يقدر بنحو عشرين مليون نسمة بما يتراوح ما بين ١٢٪ و ١٥٪ من إجمالى السكان. وفضلا عن ذلك، فإن هؤلاء المسلمين ليسوا مهاجرين كما هى الحال فى أوروبا الغربية، وإنما جزء أصيل من السكان الذين أضحوا من رعايا الإمبراطورية الروسية من خلال الغزو الروسى للبلدان المجاورة. وفى الاتحاد الفيدرالى الروسى الجديد، يمثل المسلمون أكبر أقلية دينية من حيث العدد، كذلك فإن الإسلام هو أكبر معتقد دينى فى روسيا بعد الأرثوذكسية. وتضم موسكو، الآن، تجمعا للمسلمين يفوق أى تجمع آخر فى أية مدينة فى العالم بأسره.

obeikandl.com

وبفضل تعداد مسلميها الكبير، تسعى روسيا، الآن، لأن تصبح عضوا مراقبا بمنظمة العالم الإسلامى، ومقرها مكة بالمملكة العربية السعودية.

ولعل الحقيقة الأكثر دلالة هى أن جميع المسلمين فى الأراضى الروسية هم، فى الحقيقة، ليسوا من الروس، وإنما ينتمون إلى أعراق وإثنيات أخرى تركية بالأساس. وقد غزت الشعوب التركية والتترية والمغولية أراضى روسيا خلال القرن الثالث عشر الميلادى، مع ما اتسمت به تلك الشعوب من حكم وحشى قاس حين أخضعوا "موسكوفى" لعدة قرون. لذا، ففى روسيا، فإن أى اختلاف دينى غالبا ما يكون اختلافا إثنيا بالأساس – باعتبار العامل الإثنى عاملا هاما فى تكريس الخلاف وترسيخه. إذاً، فالمسلمون الروس باعتبارهم ينتمون، بالأساس، إلى أعراق "تركية" هو أهم كثيرا من كونهم مسلمين فحسب.

وبما أن الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت على أيدى المسلمين من الأتراك والعرب، فإنه من المنطقى افتراض أن يكون الروس شديدى العداء للإسلام والمسلمين. بيد أنه من الصعب أن نعزى سقوط القسطنطينية إلى الإسلام. فهل لنا، حقيقة، أن نصدق أنه لو كان العثمانيون الأتراك غير مسلمين لكانوا امتنعوا عن غزو بيزنطة اليونانية ودحرها، وهى الإمبراطورية الغنية المنهكة آنذاك، بغض الطرف عن المعتقد الذى تعتنقه؟

خلال حقبة الحكم السوفييتى لروسيا، كانت السياسات الإلحادية العنيفة للدولة تهدف إلى تدمير جميع الأديان والعقائد على امتداد الأراضى الروسية. بيد أنه بينما أضعف السوفييت ممارسة الإسلام كمعتقد، على نحو كبير، إلا أنهم قد عجزوا عن القضاء عليه. فكما كان متوقعا، عاد الإسلام ليمثل قضية أساسية وهامة لموسكو فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتى. وقد نالت ست جمهوريات

إسلامية استقلالها ولم تعد جزءا من روسيا. وبخصوص المسلمين المقيمين فى روسيا، فقد كانت النظرة تتراوح بين اعتبارهم أعداء، ثم دعائم لروسيا القيصرية، ثم أعضاء أوفياء للإمبراطورية الروسية، ثم قادة محتملين للحركة الشيوعية المناهضة للإمبريالية فى الشرق، ثم شركاء أيديولوجيين بوجه الإمبريالية الغربية، أو كقوميين مشكوك فى ولاءاتهم، أو كإرهابيين أو انفصاليين خطرين، أو -مرة أخرى- كحلفاء محتملين ضد الهيمنة الإمبريالية الأمريكية. كذلك، فقد أوضحت التجربة الروسية كيف عمد المسلمون هناك إلى التواؤم والاندماج، وفق أساليب شتى، فى روسيا المسيحية فى ظروف متقلبة غير مستقرة، كذلك فقد يكون المسلمون هناك ما زالوا يكتشفون بعض المشتركات الجيوبوليتيكية إلى اليوم.

وبعد سقوط الشيوعية عقب انهيار الاتحاد السوفييتى السابق، وبنهاية التوجهات الإلحادية الرسمية للدولة، والتمتع بمزيد من الحريات والاستقلالية الثقافية، برز الملف الإسلامى، على نحو جوهرى، ضمن اهتمامات الفيدرالية الروسية. إذ توافد النشطاء الإسلاميون من خارج الاتحاد السوفييتى المنحل إلى الأراضى الروسية لنشر الأفكار الإسلامية والترويج لها، تحدوهم فى ذلك نوايا سياسية واضحة سلمية بالأساس، وإن وجدت أيضا بعض الاتجاهات شديدة العنف. وبالفعل، كان المسلمون الروس بحاجة ماسة إلى تلك الإرساليات التبشيرية، إذ فقد الكثير منهم، فى ظل القمع السوفييتى على امتداد أجيال ثلاثة، جانبا كبيرا من المعلومات عن الشرائع والممارسات الدينية، وكذا الطقوس والمراد منها، إلى الحد الذى أصبحوا معه يجهلون أساسيات الدين ككيفية أداء الصلوات على نحو سليم. وقد أسفر انهيار الاتحاد السوفييتى عن فراغ روحانى عميق على امتداد كامل الأراضى الروسية، إذ كان الروس، بصفة عامة، متعطشين لبعث روحانى جديد يضفى قيمة إيمانية على حياتهم يستشعرون معها معنى هوياتهم وجدواها.

وقد أسهمت الاتصالات مع الإسلاميين من خارج البلاد فى تعميق وعى المسلمين الروس بدينهم، وكذا بالروابط التاريخية التى ربطت روسيا بالعالم

الإسلامى خارج حدودها. كذلك، فقد شرع المسلمون، مرة أخرى، فى تأدية مناسك فريضة الحج إلى مكة، وكذلك، وربما أكثر أهمية، بدأ المسلمون التواصل مع الفكر الإسلامى المعاصر بشتى أطيافه ومشاربه، والالتحام ثانية فى العالم الإسلامى الذى أصبح الآن أكثر تسييسا عما عهده مسلمو روسيا من قبل. وفى حين كانت بعض الاتجاهات الإسلامية ذات طابع راديكالى، كان معظمها سلميا فى طبيعته واتجاهاته. إلا أن الاستثناء الصارخ، فى هذا الصدد، كان شمال القوقاز – حيث واصل الكثير من الجماعات الإثنية الصغيرة، وبخاصة الشيشان، صراعها المسلح طويل الأجل، والذى امتد لقرن ونصف القرن بهدف تحقيق الاستقلال السياسى مستحضرا الإسلام، مرة أخرى، فى تلك القضية. أما هزيمتهم الساحقة على أيدى القوات الروسية فى تسعينيات القرن العشرين فقد أصبحت درسا لجميع الشعوب الأخرى فى روسيا، التى تستهدف الانفصال ... وكانت مظاهر الهزيمة تتمثل فى تدمير عاصمة الشيشان –جروزنى– ومدن أخرى، مما خلف عشرات الآلاف من القتلى. على أن العاصمة قد تم إعادة بنائها، وفطنت موسكو –هذه المرة– إلى حصافة منح الشيشان درجة مقبولة من الحكم الذاتى داخل الأراضى الروسية ... إلا أن الكثير من الدماء الشيشانية قد أريق، كما أزهق العديد من الأرواح، بينما أدى الشعور بالإحباط والغضب الشديدين فى الشيشان إلى تبنى عدد من المحاربين نماذج إسلامية أكثر راديكالية وأشد تطرفا، بما فيها تبنى أنموذج "تنظيم القاعدة".

وبينما يبدو نضال الشيشان الطويل سعيا للاستقلال لا نهائيا، فإن هذا النضال لا يمثل جميع المسلمين فى روسيا تمثيلا كاملا. إلا أنه، وفى تلك الحالة، هناك اختلاف فى طبيعة الصراع المسلح. ففى الماضى، كانت الأخوة الصوفية هى رأس الحربة التى قادت ووحدت الجهود نحو تحقيق الاستقلال – حركات وتنظيمات صوفية يمكنها، حين تعن الحاجة، الالتجاء إلى المقاومة المسلحة عندما تتعرض ثقافتها وحضارتها للتهديد من الخارج. أما هذه المرة، فقد ذهب الكثير من

"الجهاديين" الإسلاميين ذوى الصبغة العالمية، والذين خاضوا الكثير من الصراعات المسلحة الأخرى فى البوسنة وكشمير وأفغانستان - إلى الشيشان لتقديم يد العون والمساعدة، ولنشر المزيد من الأفكار والرؤى "الجهادية" الراديكالية.

وفى بعض الأحيان، تندلع الصراعات والمصادمات ما بين المحاربين الصوفيين الأكثر تقليدية وأولئك الإسلاميين الجدد، والذين عادة ما يطلق عليهم لفظة "الوهابيين". وقد نفذت بعض العمليات الإرهابية فى قلب روسيا ذاتها كمحاولة للثأر من الوحشية والدموية الروسية فى الشيشان. وربما يكون الإرهاب الشيشانى ضد الروس أكبر مصادر "الإسلاموفوبيا" القائمة حاليا فى روسيا.

وفى أعقاب هجمات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وإعلان واشنطن "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، قامت موسكو وبكين بالانضمام إلى ذلك النداء وتلك الصرخة ليعلنا أن الانفصاليين المحليين، وكذا الإسلاميين بهما هم فى عداد "الإرهابيين". وقد أتاحت "الحرب ضد الإرهاب" مشروعية تطبيق سياسات أكثر عنفا وقسوة، والتى كان ينظر إليها فى ظل معطيات وظروف أخرى على أنها انتهاكات لحقوق الإنسان. ففى أيار/مايو ٢٠٠٥، قامت الحكومة الأوزبكية بفتح النيران عشوائيا على الحشود الغاضبة من المتظاهرين الإسلاميين مما أدى إلى مقتل المئات ممن وصفوا جميعا بأنهم "وهابيون"، كذلك فقد ربطت الصحافة الرسمية الأوزبكية بينهم وبين "الإرهابيين العالميين"، حتى وإن أفادت الشواهد بأنهم منشقون إسلاميون تم إعدادهم محليا بالأساس - فى تظاهراتهم ضد السلطة الشمولية الغاشمة للحكم الأوزبكى.

واليوم، وفيما يتعلق بمسلمى الاتحاد السوفييتى السابق ومسلمى روسيا الحالية - فقد أصبحوا متوائمين ثقافيا وحضاريا باندماجهم فى تيار الفكر الإسلامى العالمى. إن الهوية الإسلامية تتخذ الآن مسارا تصاعديا، بيد أنها تنبثق، على نحو كامل، فى إطار الاتحاد الفيدرالى الروسى بطابعه متعدد الثقافات.

ففى ظل الأجواء المتسمة بالقهر والقمع، يبرز الإسلام كعنصر هام من عناصر الهوية المشتركة، والتى تساعد فى توحيد الروس المسلمين على تنوعهم وتباينهم، إلا أنه يكون من الخطأ أن نتصور قدرة الإسلام على تجسير جميع الهوات والفجوات الإثنية والألسنية ما بين المسلمين. فحتى الشعوب التركية ذات الإثنيات المتعددة – لديها منافسون من بين أنفسهم إذ لم تُظهر تلك الشعوب إلى الآن شكلا من أشكال التضامن السياسى القوى ذى النزعة "التركية" فيما بينها، ناهيك عن أى تضامن إسلامى ملحوظ. لذا، فإن الإسلام هو عنصر ترابطى جامع ولكن على نحو مؤقت غير مستدام بما تسمح به السياسات الروسية المتبعة. بيد أنه من الجلى أنه حتى لو لم تكن الشعوب "التركية" الموجودة فى روسيا تعتنق الإسلام، لكانت قد احتفظت بهوية مستقلة قوية، ولكان الأغلب أن تظل ترعى الحركات الانفصالية فى عصر يعج بالقوميات والاضطرابات فى روسيا.

كيف إذاً كانت علاقة الإسلام بالحكم فى روسيا؟ بلغ الإسلام أجزاء من روسيا حتى قبل المسيحية ذاتها. ولقد نشأت علاقة روسيا الأولية بالإسلام على أرض المعركة حين قامت الإمبراطورية الروسية بالتوسع جنوبا وشرقا فى غزوها الوئيد لالتهام البلدان "التركية" المسلمة. وكانت إحدى الحوادث الأكثر مأساوية حين غزا "إيفان الرهيب" مدينة قازان – عاصمة الخانية التترية عام ١٥٥٢ (صور الحصار ببراعة على لسان الراهب المخمور "فارلام" فى إحدى الغنائيات المؤثرة من أوبرا "بوريس جودونوف" لموديست موسورغسكى).

إن الكنيسة الأرثوذكسية، حقيقة، هى أول من استحث تلك الغزوات الروسية على الشرق حيث نادت بنشر المسيحية فى قازان المسلمة، المؤسسة بعناية كعاصمة للخانية التترية. وعقب الغزو، سرعان ما أرست الكنيسة وجودا مؤسساتيا قويا فى الأقاليم التترية، وتم التخطيط لتحويل سكانها المسلمين بالقوة والإجبار لاعتناق المسيحية الأرثوذكسية. إن استيلاء روسيا على قازان كان "حدثا حضاريا خطيرا"– حيث مثل خطوة رئيسية أولى على طريق تدشين الإمبراطورية الروسية، وتحويل

حاكم "موسكو" ليصبح "قيصرا" يسيطر على أقاليم وسكان جدد. وكانت شرعية "القيصر" ونفوذه المهيمن ينبثقان من دوره القائم على نشر المعتقد الأرثوذكسى، والذى قاد حملتها القس "مكارى" – مطران الكنيسة :

بمباركة القس "مكارى" وتحت إشرافه، تم خوض الحرب ضد الخانية التترية كحرب مقدسة شنتها الكنيسة الأرثوذكسية. فما أن بدأت المناورات العسكرية حتى أوصى "مكارى" بمزيد من السلوك الخير والمنضبط من قبل جيش "إيفان الرهيب" المعسكر فى "سفياجسك" – القلعة الموسكوفية المتاخمة لقازان. وقد وعد "مكارى" الجيش المحارب بمباركة الرب ورحماته نظير ما يضطلع به من واجب مقدس، إذ أساء التتار فى قازان إلى كلمة الرب، وانتهكوا حرمات الدين وقدسية الإيمان. كذلك، فقد تنبأ بحلول نقمة الرب وعقابه على أولئك التتار الكافرين ... تلك النقمة وذلك العقاب سيجلبان النصر للجيش الروسى، بما يتفق ودور روسيا الجديد كراعية وحامية لقدسية المعتقد الأرثوذكسى.

قارن كيف لم يعتبر الروس الأوائل، مثلهم فى ذلك مثل الصليبيين، المسلمين كأتباع دين آخر، وإنما كونهم هراطقة مارقين من المسيحية وتعاليمها.

وبالرغم من قيام الكنيسة الأرثوذكسية ببناء الكنائس والأديرة والمؤسسات الدينية فى الأقاليم التى تم غزوها للتو، إلا أنه قد أسقط فى يدها بشأن هدفها لنشر المسيحية فى تلك الربوع، وتحويل المسلمين لاعتناق عقيدتها ... إذ بينما رأت الكنيسة الغزو الروسى للتتار المسلمين وتحويلهم لاعتناق المسيحية مهمة مقدسة، إلا أن موسكو لم تشاطرها الرأى. فالحملات العسكرية الروسية كانت، بالأساس، جانبا من بسط نفوذ الدولة وإحكام هيمنتها. فلو لم تكن تلك الأراضى التترية بأيدى المسلمين، لكانت موسكو قد داهمتها على الفور. إذاً، فلم يكن التحول لاعتناق الأرثوذكسية، من وجهة نظر موسكو، إلا ذريعة تصبغها التقوى للتوسع الإمبريالى المنشود.

ولكن سرعان ما أدرك القياصرة فى موسكو مدى صعوبة عملية تحويل ذلك العدد الضخم لاعتناق الأرثوذكسية وتشابكها، خاصة عند الأخذ بعين الاعتبار قدرة الإسلام على مقاومة ذلك التحول. كذلك، فقد دخلت الاعتبارات الجيوبوليتيكية المشهد، فقد أبدى السلطان العثمانى اهتمامه وقلقه بشأن رفاهية المسلمين فى الخانية التترية كونه المسئول عنهم من الوجهة الدينية. وفى هذا الصدد، فقد طمأنه القيصر بتأكيده على اعتزامه السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية. وهنا فقد طغت الحقائق والاعتبارات البراجماتية على الحماسة الأرثوذكسية.

وبالرغم من أن العلاقة الناشئة كانت بين المسيحيين المنتصرين والمسلمين المنهزمين، إلا أن نوعا من التعايش قد نشأ بينهما. ففى نهايات القرن الثامن عشر، أبدت الإمبراطورة "كاترين العظيمة" رفضها لرغبة الكنيسة إزاحة الإسلام وتحويل جميع المسلمين لاعتناق الأرثوذكسية – وهو هدف لو كان قدر له النجاح لكان من المؤكد أن يفضى إلى موجات لانهائية من العداءات والثورات داخل الإمبراطورية. وبالمقابل، وفى سابقة هامة للتعددية الثقافية فى روسيا الإمبريالية، قامت موسكو بإدراج "الدين" كعنصر من عناصر هيكلها الإمبراطورى عن طريق ربط الإسلام مباشرة ليكون ضالعا فى تأسيس حلف للانصهار القومى والتماسك الاجتماعى. وفى هذا الإطار، فقد اعتمدت الإمبراطورة "كاترين" سياسة قوامها رحابة الأفق والتسامح ... سياسة هدفت إلى دمج الهياكل الإسلامية الدينية والدنيوية داخل البنيان الإمبريالى الأشمل. إذ سيصبح الدين قاعدة للتنظيم السياسى والاجتماعى للإمبراطورية بارتكانه إلى المفهوم المشترك من قبول رب واحد ومفاهيم التنوير الخاصة بالتسامح الدينى. وبذا، فقد سعت موسكو إلى "تحويل السلطات الدينية ومرجعياتها فى كل مجتمع على امتداد الإمبراطورية إلى أداة من أدوات الحكم الإمبريالى".

إذاً، فقد روجت الخطة الإمبريالية الروسية لتأسيس جماعات دينية، كبديل عن تلك الإثنية بحيث تمثل كل جماعة منها الوحدة السوسيوسياسية الأساسية داخل

الإمبراطورية. (وقد كانت الإمبراطورية العثمانية، فيما سبق، الرائدة فى ذلك المضمار حيث عملت على تنظيم قواعد الإمبراطورية وفقا للجماعات الدينية المنشأة). وفى الإمبراطورية الروسية، تم تأمين النظام الاجتماعى والسياسى، بعناية فائقة، عن طريق ضمان استمرارية "التماسك والالتزام الدينى" داخل كل جماعة على حدة، وبإشراف القادة المباركين من قبل الدولة. لذا، وترتيبا على ما سبق، فإن أى شكل من أشكال المعارضة الدينية أو المعتقدية لأى من الأديان القائمة بالإمبراطورية كان ينظر إليه باعتباره رديفا للمعارضة السياسية – وهو مفهوم شائع تواتر إلينا عبر التاريخ البيزنطى. أما تماسك كل جماعة على حدة فقد اعتمد على ضمان الحفاظ على هيكل موحد يعمل على تأمين المعتقدات الدينية دون أى مساس بها، وبما يتلاءم وهوية الجماعة. ووفقا لهذا، فقد كان يحق لقادة الجماعات المسلمة بدورهم الالتجاء إلى السلطات الشرطية بالإمبراطورية الروسية لتأمين نفاذ قراراتهم والحفاظ على انضباط الممارسات الدينية، ومن ثم استتباب النظام الاجتماعى وعناصره.

ولكن ما شرعية موسكو، من وجهة النظر الإسلامية، فى تعيين زعامات الجماعات المسلمة وقادتها بالإمبراطورية الروسية؟ إن الشرعية العليا المطلقة التى تمتع بها "العلماء المسلمون" فى البلدان المسيحية قد تأكلت بفعل قيام الدولة ذاتها باختيارهم وتعيينهم فى المناصب، وكذا بفعل قيامهم بمناصرتها وموازرتها بالمقابل. إذاً، فقد خسر أولئك العلماء استقلالهم، وأضحى من السهولة بمكان اتهامهم بكونهم مجرد "دمى" تتلاعب بها الدولة كيفما شاءت ووفقما ارتأت. لذلك، كان حق المسلمين فى تعيين القائم على الإفتاء بالدولة أحد المطالب السياسية للمسلمين إبان اندلاع الثورة الروسية.

وخلال حكم سلالة "رومانوف" والتى دامت لقرون ثلاثة، أصرت الدولة الروسية على التأكيد أن سلطتها الحاكمة تستقى "كينونتها" من العنصر الدينى. وبالنسبة لمشروع الدولة الروسية إبان ذلك الحكم، فقد ارتكن إلى "عالم أخلاقى يتقاسمه

الجميع"، وبالفعل فقد حالف التوفيق تلك السياسات على نحو كبير. وكما يتعين على الحكام فى البلدان الإسلامية، وإن كانت صيغة الحكم دنيوية، الحفاظ على القواعد الاجتماعية والقانونية الإسلامية لتكون لهم شرعية يرتكنون إليها، فإن قبول سلالة "رومانوف" غير المسلمة كحكام يخضع لهم المسلمون داخل الإمبراطورية، يكون رهنا بسماحهم للمسلمين بحرية اتباع النهج الإسلامى فى نمط حياتهم، وكذلك يكون رهنا بحفاظهم على المبادئ الإسلامية فى نطاق الجماعات الروسية المسلمة. بل لقد بلغ الأمر حد تشجيع الرعايا المسلمين على التقدم بشكاواهم ونزاعاتهم من القيصر للبت القضائى بشأنها، ومن ثم الإقرار بشرعية القيصر، فضلا عن الحفاظ على الوحدة والرفاه والسعادة بين الرعايا المسلمين بالإمبراطورية. وقد كان الهدف، وبمرور الزمن، أن ينظر الرعايا المسلمون بالإمبراطورية إلى حاكم البلاد بأنه يستند إلى "الشرعية"، وإن لم يكن مسلما، ومن ثم يتوجب عليهم تقديم فروض الطاعة والولاء له. وبذا، فقد اضطلعت الإمبراطورية الروسية بدور "حامى العقيدة"، ليس فقط الأرثوذكسية، بل الإسلامية واليهودية والبوذية أيضا، وكذلك البروتستانتية والكاثوليكية لاحقا.

إن لجوء القياصرة إلى تقرير الاختلافات الدينية وتجاوز تلك الإثنية قد أدى، فى النهاية، إلى توطيد أواصر التضامن وفق أسس دينية بين المسلمين بالإمبراطورية على حساب الأواصر الإثنية. بيد أن ولاء المسلمين قد قدر له أن يختبر حين استدعى ليكون على المحك، عندما قامت الإمبراطورية الروسية بغزو بلدان إسلامية خارج حدودها. وقد بلغت تلك الغزوات والحروب ما يزيد عن خمسين معركة دارت رحاها على امتداد ثلاثة قرون كاملة بين روسيا من جهة، والعثمانيين من جهة أخرى، فضلاً عن أربع حروب كبيرة تم خوضها ضد فارس المسلمة (والتى دعمت فيها بريطانيا وفرنسا الفرس تماشيا مع سياستيهما المناهضتين لموسكو). وبما أن غالبية المسلمين الروس ذوو أصول تركية، ويتبعون المذهب السنى، فقد كان تعاطفهم مع الأتراك العثمانيين يفوق نظيره مع الفرس.

بيد أن ولاءهم قد ظل قائما للقيصر حتى اضطرابات الحرب الكونية الأولى واندلاع الثورة البلشفية فى روسيا.

إن التعايش ما بين الإسلام، والمسيحية الأرثوذكسية داخل الإمبراطورية الروسية يعد تجربة هامة فى تاريخ الشعوب الإسلامية. فالمسلمون بداخل الإمبراطورية يمكن أن يمنحوا ولاءهم لها لأنهم لم يجبروا على التوبان عن طريق استيعابهم وامتصاصهم، كذلك لم يتم إكراههم على التخلى عن هويتهم الذاتية والجمعية لصالح هوية روسية مسيحية. وبطبيعة الحال، لم تكن الجماعات الإسلامية فى الإمبراطورية الروسية مطلقا وحدة متجانسة، إذ نشأت كل منها على حدة وفقا لتجربتها التاريخية والثقافية المميزة لها، كما كانت الحال بالنسبة للجماعات البروتستانتية، والكاثوليكية الرومانية، واليهودية، والبوذية داخل الإمبراطورية، والتى لم تجبر أى منها على الذوبان أو التخلى عن هويتها.

الانتماء الدينى أم الانتماء الإثنى؟

رغما عن وجاهتها وملاءمتها لتلك العصور، فإن مفهوم إدارة الدولة وتسيير أمورها وفقا لتلك الجماعات المصنفة بحسب المعتقد يبدو للمراقب المعاصر أمرا قد تجاوزه الزمن كونه نتاج عصر مختلف ذى نزعة دينية أعمق. إذاً، فما القاعدة التى يمكن أن ترتكن إليها هوية المرء أو الجماعات فى هذه الدولة أو تلك؟ أتكون الإثنية (الانتماء للسان ما) أم يكون الدين (كعقيدة معتنقة)؟ لقد جرى التصنيف وفقا لأحد هذين المعيارين فى الكثير من المجتمعات متعددة الثقافات لآلاف السنين. أما فى الغرب المعاصر، فيعتمد مفهوم هوية المرء فى دولة ما على مبدأ "المواطنة"، والذى يعلن المرء بموجبه ولاءه للدولة فى الوقت ذاته الذى لا يتعين عليه الإفصاح عن أى شأن ذاتى أو شخصى.

إن الإمبراطورية الروسية، رغما عن قيامها بخوض حروب عديدة ضد البلدان الإسلامية المتاخمة لها، إلا أنه كانت تربطها علاقات دبلوماسية بالإمبراطورية

العثمانية وإيران، كذلك فقد كانت الراعي الرسمي والمدافع عن الأرثوذكسية في الأراضي المقدسة بفلسطين، والتي كانت تحت السيادة العثمانية آنذاك. ولقد أولت موسكو اهتماما بالغا لوجهة نظر المسلمين الأجانب بشأن روسيا، وفي الوقت ذاته، سعت للإفادة من المسلمين الروس في تحقيق أهداف السياسة الخارجية الروسية في الشرق الأوسط، بحيث تتمكن موسكو من مخاطبة العالم "كقوة إسلامية" وليس "كقوة مسيحية" فحسب. إذا، فلم يكن الإسلام عائقا أمام النزعة التوسعية للإمبراطورية الروسية، بل كان عاملاً محفزاً لذلك.

إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ذاتها لم تنظر بعين الرضا تجاه ذلك الأمر، إذ لم تكن تستحسن مسكونية الإمبراطورية التي أعاقتها عن تحقيق أهدافها الدينية على امتداد الأراضي الروسية. وقد ذهب القوميون الروس من أمثال الأديب دوستوفسكي إلى اعتبار الكنيسة الأرثوذكسية تجسيدا "للروح الروسية"، فضلا عن معارضة الدولة بسبب علاقاتها الودية وانفتاحها على المسلمين. وقد انتقد دوستوفسكي الدولة لإطرائها المسلمين لكونهم "توحيديين"، ناعتا "التوحيد" بأنه "اللعبة المفضلة لدى الكثير من محبي العنصر التركي"، فصلا عن إيمانه بأن روسيا قد قدر لها السيطرة على الشرق.

إن مدى تقبل المسلمين للحكم الروسي عادة ما اعتمد على السياسات المنتهجة من قبل روسيا وقتها. ولعل اللحظة الفارقة قد جاءت عام ١٩١٧ حين اندلعت الثورة البلشفية، وما تبعها من تجربة سوفييتية طويلة ومؤلمة. بيد أنه خلال جميع القرون الغابرة، لم يتشكل أي كيان حقيقي للمقاومة الإسلامية الداخلية، حتى خلال الهجمات التي شنتها روسيا على جيرانها المسلمين. ففي كثير من الحالات، قام المقاتلون المسلمون أو "الجهاديون" بمقاومة حكامهم المحليين التقليديين – بما يذكر بما يجري الآن في الشرق الأوسط. كذلك، فقد قرر بعض المسلمين الروس ممن لم يسيغوا مناصرة الروس في حروبهم ضد المسلمين المتاخمين لهم، وذلك على نحو ديني، الهجرة من روسيا إلى تركيا، حتى لقد انحازوا إلى الجانب التركي خلال

الحروب مع روسيا.

إن أغلب القوى الإمبريالية على امتداد العالم قد حاولت، فى لحظة زمنية أو أخرى، تجنيد الصفوة المحلية من المسلمين لمؤازرة النظام الكولونيالى ووأد الثورات الداخلية (المحلية). فإمبراطورية الهابسبورج قد سعت قبل الحرب الكونية الأولى إلى التماس العون من الحكام المسلمين الموالين لها فى منطقة البلقان. كذلك، فقد سعى القيصر الألمانى خلال الحرب ذاتها إلى تأليب العالم الإسلامى بأسره ضد الحكم الإمبريالى البريطانى والفرنسى، وإن خاب مسعاه. وبالمثل، فقد أخفقت فرنسا فى سعيها لنيل تأييد المسلمين لها فى غزو الجزائر وضمها إليها، وكما فعلت ألمانيا حين غزت القوقاز خلال الحرب الكونية الثانية. أما اليابانيون، فقد حاولوا التحالف، قبل تلك الحرب وخلالها، مع مسلمى جنوب وجنوب شرق آسيا للقتال ضد الجيوش الغربية هناك. وخلال الحرب ذاتها، استمال الألمان مفتى القدس فى محاولة لكسب تأييد العرب ومؤازرتهم ضد قوات الحلفاء فى الشرق الأوسط. واليوم، تدعم الولايات المتحدة الأمريكية العديد من الحكام العرب غير المنتخبين شرعيا من قبل شعوبهم، وغير المحبوبين كذلك لترويج السياسات الأمريكية غير المقبولة شعبياً ونشرها بالبلدان العربية.

بيد أن ارتباط روسيا بالإسلام وعلاقتها به أقدم وأعمق وأبعد غورا وأكثر تشابكا من ارتباط أوروبا به. ولعل السبب الرئيسى لتلك الظاهرة هو كون الإمبراطورية الروسية قد واجهت المسلمين نتيجة لتوسعها الجغرافى شرقا وجنوبا، على عكس الإمبرياليين الأوروبيين الذين واجهوهم فقط من خلال الغزوات البحرية عبر مسافات جد بعيدة. إن أشكال التعايش الروسى مع الإسلام قائمة بالفعل وسوف تبقى كذلك على الدوام، إذ إن الطرفين يعيشان ضمن حيز مكانى مشترك. فروسيا هى الدولة الغربية الوحيدة التى يوجد ضمن هيكل المواطنة بها جماعة إسلامية أصيلة ذات شأن ملموس.

المجـــددون

دائماً ما كان المسلمون فى روسيا يناضلون من أجل تحقيق هدفهم المتمثل فى نيل أقصى استقلال ثقافى وحضارى ممكن، بيد أنهم كانوا يحيون أيضا داخل روسيا التى كانت بدورها تشهد غليانا ثقافيا وسياسيا كبيرا. إذ أدرك المسلمون صعوبة أن ينعزلوا بمنأى عن الجدالات المثارة حول قضاياهم وأمورهم الهامة. ومع اقتراب منتصف القرن التاسع عشر، انبثقت أول حركة إصلاح جدية بين صفوف المسلمين فى روسيا – وهى حركة "المجددين"، والتى سعت إلى تجديد هيكل المجتمع المسلم هناك. وفى حقيقة الأمر، فإن حركة "المجددين" كانت واحدة من أهم حركات الإصلاح الإسلامية المبكرة على امتداد العالم الإسلامى، والتى عكست ومثلت طبيعة التشابك الحضارى والثقافى مع المجتمع الروسى.

ولقد أكد "المجددون" على الأهمية البالغة للتعليم، وعلى ضرورة تضمين المناهج الدراسية موضوعات ومواداً عملية كالرياضيات والعلوم. وفى هذا الإطار، انتشرت المدارس، وأصدرت صحف جديدة، وشرع فى ترجمة الكتب إلى اللغات المحلية. بيد أن السلطات الإمبريالية الروسية قابلت تلك الحركة بقلق وعدم ارتياح، خوفا من انتشار أفكار ومبادئ ذات صبغة هدامة أو انفصالية أو داعية لعالمية إسلامية جامعة، حتى ولو ارتبطت بعناصر ومقومات المجتمع الروسى الليبرالية. كذلك، فقد انبثقت المعارضة ضد حركة "المجددين" من عناصر "الصفوة" الإسلامية القديمة فى المجتمع، والتى يغلب عليها الطابع الإقطاعى ... تلك "الصفوة" التى كانت تخشى أية حركة أو أى تجمع يهدف إلى تكوين طبقة أو "صفوة" جديدة بواسطة التعليم والإعداد والتمكين، مما ينجم عنه بالضرورة تغيير الهيكل الاجتماعى المتحجر، وبالتالى الإضرار بمصالح "الصفوة" القديمة القائمة. وقد كان هذا هو هدف "المجددين" بالفعل، ولكن دونما التجاء إلى الثورة أو العنف. بل لم يعمد هؤلاء "المجددون" إلى تبنى "أجندة" انفصالية أو الترويج لها، إذ سعوا إلى تثبيت أركانهم وتقوية شوكتهم فى إطار من الهيكل السياسى الروسى الأشمل.

ولقد صور "إسماعيل غاسبيرالى"، ذلك التترى من القرم، وأحد أبرز "المجددين"، بجلاء مدى فاعلية الحركة الإسلامية داخل إطار النظام السياسى الروسى، كذلك فقد دعا روسيا إلى التعاون مع العالم الإسلامى :

... لو أقامت روسيا علاقات جيدة مع كل من تركيا، وإيران فسيكون ذلك انتسابا للشرق الإسلامى بأسره، وستحتل بذلك مكانة سامقة على رأس الأمم الإسلامية وحضاراتها، وهو ما تسعى بريطانيا إلى تحقيقه بدأب وإصرار.

والخلاصة، أن غاسبيرالى قد رأى روسيا كأمة إسلامية كبرى إلى جانب كونها أمة مسيحية كذلك. وفى الوقت ذاته، كانت تلك إحدى أوائل التجارب التكاملية الكبرى بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية. وفى هذا الإطار، اضطلع الدين بمهمة إعطاء رؤية شاملة لمكانة روسيا العالمية، وليس حجبا لتلك الرؤية. ولكن حتى لو لم تكن ثمة اختلافات عقائدية، لو لم يكن الإسلام طرفا فى المعادلة، لكانت روسيا قد واجهت مشاكل جسيمة وتحديات هائلة تتعلق بدمج الجماعات التركية الكثيفة فى نسيج الإمبراطورية.

وعلى حين كان القرن التاسع عشر يقترب من نهايته، تسارعت وتيرة الحركة الإسلامية للتعليم والإصلاح والمشاركة السياسية فى روسيا. وانخرطت "الصفوة" فى جدالات محمومة حول "الهوية" فى عصر سياسى جديد يشدد على "الإثنية". فحتى الروس أنفسهم كانوا فى شك مما إذا كانوا ينتمون إلى "الغرب" أم إلى عالم أرثوذكسى فريد، أم حتى إلى "آسيا". وبالمثل، فقد أورد المسلمون تساؤلات مشابهة : هل هم "مسلمون" بالأساس، أم مواطنون روس، أم أتراك، أم تتر، وإن كان كذلك، فوفقا لأى ترتيب؟ هل هم "ينتمون" إلى روسيا؟

لقد أجبر القيصر "نيقولاى الثانى"، عقب ثورة ١٩٠٥ فى روسيا، على إجراء إصلاحات وتقديم تنازلات سياسية كبرى على طريق "الليبرالية"، والتى اشتملت على إنشاء برلمان بالبلاد (الدوما). وفى "الاجتماع الأول لاتحاد المسلمين الروس"

عام ١٩٠٥ والمنعقد لبحث الاستراتيجية، نظم المسلمون الروس حركتهم السياسية وفقا لمعيار الدين، لا على أسس أيديولوجية. وكان الهدفان الرئيسيان لذلك الاجتماع تحقيق استقلالية دينية وثقافية أكبر، وأن تتم معاملتهم بالمثل كما الحال مع المواطنين الروس غير المسلمين. ويجب علينا ألا نغفل أن السبب الرئيسى لاختيار المسلمين الروس - وهم أتراك بالأساس - الإسلام كرابطة موحدة تنتظمهم، هو أن الدين، وليس الانتماء الإثنى، كان هو أساس تنظيم الإمبراطورية الروسية.

ولقد كانت سياسات هذه الحركة معتدلة ووسطية، إذ كان هدفها توحيد جميع المسلمين الروس خلف أهداف عامة مشتركة منها : التوزيع العادل للأراضى، وحرية الصحافة، والحق فى التنظيم والاجتماع، وكذا حرية الاعتقاد، وأن يكون النظام ملكيا دستوريا. كذلك، فقد سعت زعامة الحزب للتمثيل ضمن المشهد السياسى الروسى، ووعدت الداخلية الروسية بأن الحزب ليس انفصاليا ولا يعمل ضد مصلحة روسيا، فضلا عن ولائه للقيصر. وعلى مدار عدة اقتراعات، نجح "اتحاد المسلمين الروس" فى الفوز بما بين ثلاثين إلى أربعين مقعدا من مقاعد الدوما. وعلى الصعيد الدينى، دعا "الاتحاد" إلى الاصلاح الجذرى لتراتبية هرمية لهيكل العلماء المسلمين، ولاختيار مفتى البلاد وفقاً لاستفتاء شعبى - وهى دعوة غير مسبوقة فى أى من البلدان الإسلامية. ولقد ساعدت تلك المعايير فى كسر احتكار فئة بعينها فيما يخص تقلد المناصب التقليدية فى صفوف العلماء. إلا أنه، وفى سنوات قليلة، بدأ الاتحاد فى التصدع، لأسباب بعضها إثنى وإقليمى، وبعضها أيديولوجى تعلق بتبنى بعض مندوبى الاتحاد موقفاً يسارياً تماشياً مع الاشتراكيين الروس. والخلاصة، أن الإسلام لم يعد الرابطة الاجتماعية كما كان من قبل، وأضحى المسلمون الروس ينطلقون وفق قاعدة محددة للتباينات الإثنية، والإقليمية، والطبقية، والأيديولوجية. كذلك، فلم تعد الهوية الإسلامية تحيا فى مناخ يكون للمسلمين بموجبه حرية الحركة فى إطار سياسى تعددى. وخلال الحرب

الكونية الأولى، انضم أكثر من مليون مسلم روسى إلى صفوف الجيش الروسى، حيث قاتل كثير منهم ضد القوات العثمانية فى الجنوب، وذلك رغما عن "الفتاوى" العثمانية التى دعت جميع المسلمين لدعم ومؤازرة الإمبراطورية العثمانية ضد المعتدين المسيحيين حين تلوح الحاجة إليهم.

إذاً، فقد تمثلت السمات الرئيسية لتلك الحقبة الإمبريالية القيصرية فى النجاح النسبى لإدماج المسلمين فى نسيج إمبراطورية مسيحية، وتأرجح المسلمين بين البعد الإثنى والبعد الدينى كأساس للتنظيم السياسى، فضلا عن درجة من الولاء الذى أبداه المسلمون الروس تجاه النظام السياسى الروسى. أما "السياسة" فى تلك الحقبة فكانت وفقا للاتجاه السائد ... تلك السياسة التى وصفت لاحقا "بالقومية البورجوازية" بالتوازى مع بعض الأحزاب اليسارية والدينية المتشددة ... وفى المجمل، لم تكن هناك أية "حدود دموية" فى واقع الأمر. وهنا حالة رائدة، فالمسلمون إذا ما منحوا الفرصة للمشاركة باعتبارهم أقلية فى نظام سياسى مقبول، سيقومون بالمشاركة الفعلية. بل إنهم سيقومون بدعم الأحزاب السياسية المشكلة على أساس سياسى/ أيديولوجى، وليس التكتلات الإسلامية فحسب. بيد أنهم لن يتخلوا أبدا عن هويتهم الدينية كونها ملمحا رئيسيا من ملامح هويتهم الجمعية. كل هذا ستأتى الحقبة السوفييتية وتضع نهاية حاسمة له.

الثورة الروسية و«البلشفية»

تكشف الحقبة السوفييتية فصلا جديدا وعنيفا فى التطور المركب للجماعة الإسلامية الروسية. فالحكام الشيوعيون (البلاشفة) الجدد لم يكن بمقدورهم ، بداءة، تقرير ما إذا كانوا سيوظفون الإسلام لمصلحتهم أم سيقومون بسحقه، أم سيدمرونه من خلال إنشاء هياكل سياسية ذات طابع إثنى، لا طابع دينى. وفى النهاية، فقد اختاروا إنشاءها وفقا للطابع الإثنى وأحرزوا فى ذلك بعض نجاح. وفى الوقت ذاته تقريبا، اندلعت ثورة للمسلمين الأتراك بآسيا الوسطى ... تلك

الثورة التى كانت عميقة الأثر وبعيدة المدى إذ شبت عام ١٩١٦، وذلك قبل عام واحد من اندلاع الثورة البلشفية، وكانت ردة فعل صارخة ضد السياسات الجديدة للقيصر التى حاولت إجبار المسلمين على الالتحاق بصفوف الخدمة العسكرية، كما كانت صرخة ضد مظالم وشكاوى أخرى ارتبطت باقتصاد الحرب الكونية الأولى. وقد استمرت تلك الثورة، والمعروفة "بثورة باسمشى"، مندلعة وواصلت انفجارها طيلة عشرة أو خمسة عشر عاماً تالية داخل المناطق الأوزبكية والطاجكية، بصفة عامة، مدفوعة فى ذلك بتطلعات وآمال قومية ودينية جديدة للاستقلال ضمن صفوف العديد من مسلمى آسيا الوسطى الذين أضحوا شديدى العداء للديكتاتورية السوفييتية الملحدة. وفى الوقت الذى تم فيه سحقها على يد الجيش الأحمر، إلا أن الثورة قد كشفت جليا عن المظالم بعيدة الغور التى تعرض لها المسلمون الروس. وقد كانت تلك الثورة، أيضا، بإيعاز من المسئولين العسكريين الأتراك المتقاعدين، فضلا عن دعم الاستخبارات البريطانية لها - الأمر الذى وصم المسلمين بتهمة الولاء للقوى الأجنبية. ولقد قدمت ثورة باسمشى دليلا واضحا على وجوب تعامل موسكو مع رعاياها المسلمين بحذر بالغ، إن إثنيا أو دينيا.

إن الحزب الشيوعى، خلال الأيام الأولى من الحكم السوفييتى، قد بذل جهودا كبرى لتوظيف "الإسلام" لمصلحته الخاصة ومآربه المنشودة، ولتجنيد المواطنين المسلمين للترويج لأجندة الثورة الشيوعية عالميا، والإطاحة بالحكم الإمبريالى الغربى فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. وكانت الهند، المحتلة من قبل بريطانيا آنذاك، أحد الأهداف الرئيسية للسوفييت، فالهند تقع بالقرب من الأراضى الروسية، وهى مستعمرة شهدت من قبل انتفاضات وثورات إسلامية ضد الحكم البريطانى لها.

لذا، ففى اجتماع أسطورى مهيب عام ١٩٢١، وهو اجتماع باكو لشعوب المشرق، اجتذب السوفييت ما يقرب من ألفى مندوب عن البلدان الكولونيالية وشبه الكولونيالية على امتداد العالم للتخطيط لفعل ثورى ضد القوى الكولونيالية الغربية.

ولقد اعتبرت موسكو البلدان الإسلامية فى طليعة الثورات، وسعت للإفادة من دورها لتحقيق أهداف السياسة الخارجية السوفييتية ضد الغرب.

إن "الإسلام" لم يمثل مباشرة فى فاعليات اجتماع باكو، إذ انصب اهتمام موسكو على توحيد قوميات الشعوب الإسلامية مع "الشيوعية" كأداة من أدوات مناهضة الكولونيالية. ولكن، وكما ذكرنا سالفا، فإن الإسلام ينحاز لردات الفعل القومية حين الصراع ضد القوى غير الإسلامية. لذا فإن الاستراتيجيين السوفييت، وبصفة خاصة لينين وزينوفييف، قد بحثوا عن سبل من شأنها تطويق العناصر المحافظة للمجتمع الإسلامى، واستنهاض الدوافع والقوى الثورية لديها. بل إن مصطلح "الجهاد" قد تمت استعارته ليستخدم ، هذه المرة، وفقا لاقتراب أكثر علمانية ودنيوية، حين ترددت شعارات "الحرب المقدسة ضد الإمبريالية"، والتى جاءت للدلالة (تجديفيا، فى واقع الأمر) على ضرب مستحدث من "الحج" ... هو حج صوب القبلة الجديدة للثورة العالمية (موسكو) ... والتى ستمنح التحرر والانعتاق لجميع شعوب الشرق المضطهدة. إلا أن موسكو كانت على دراية ووعى كاملين بأن الإسلام والقومية يمثلان سلاحا ذا حدين ... سلاحاً قد يتم توجيهه بالمثل ضد الحكم السوفييتى فى المناطق الإسلامية من الإمبراطورية، كما حدث بالفعل أثناء ثورة باسمشى.

مرزا سلطان غالييف

الشيوعى-القومى-المسلم

ربما كان أفضل تجسيد للقاء ما بين الأيديولوجية الماركسية/ اللينينية والمجتمعات الإسلامية يتمثل فى شخص "مرزا سلطان غالييف"، وهو مسلم تترى من إقليم حوض نهر الفولغا انضم لصفوف الحزب الشيوعى إبان الثورة البلشفية عام ١٩١٧ . وتطورت مسيرة غالييف ليصبح شخصية بارزة فى الحركة البلشفية المناهضة للإمبريالية. وقد دعا غالييف لإنشاء "حزب شيوعى إسلامى" -وما ينطوى

عليه الاسم ذاته من جمعه لنقيضين آنيا- إذ رأى أنه يمكن التغلب على التباينات الإثنية بين الجماعات والشعوب الإسلامية العديدة داخل الإمبراطورية الروسية عن طريق ثقافتهم الإسلامية المشتركة. كذلك، فقد آمن غالييف بإمكانية استيعاب الجماهير المسلمة للماركسية وإدراكهم لها، إذا ما تزيت بإهاب إسلامى. لذلك، فقد تخيل غالييف حزبا شيوعيا إسلاميا قويا بمقدوره الترويج للثورة الشيوعية ضد الإمبريالية الأوروبية على امتداد العالم الإسلامى. إذا، فقد أصبح الدين والإثنية نسيجا متداخلا.

لقد كان سلطان غالييف نفسه ملحدا، بيد أنه كان قد درس "القرآن" والشريعة الإسلامية، وقام بتحذير السلطات السوفييتية من قوة الحضارة والثقافة الإسلامية وعمقهما وتغلغلهما بداخل حياة المسلم. وقد تدرج غالييف فى المناصب السوفييتية، على نحو سريع، إلى أن أصبح رئيسا "للجنة الشعبية للقوميات" فضلا عن دوره البارز وآرائه الكبرى بشأن تسيير سياسات "القوميات" تحت قيادة يوسف ستالين.

إن إيمان سلطان غالييف المبكر بالحزب الشيوعى قد ارتكن بالأساس إلى طموحاته المشبوبة فى مناهضة الإمبريالية، حيث رأى فى البلاشفة، بصفة أولية، المنقذ الأوحد :

" ... انتقل الآن إلى تعاونى مع البلاشفة ... لقد انحزت للبلاشفة لإيمانى المتجذر والعميق النابع من أعماق روحى بعدالة الرؤية البلشفية ومصداقيتها. وأنا أدرك ذلك، فتلك هى عقيدتى الراسخة. لذا، فلن يتزحزح إيمانى بها قيد أنملة. كذلك، فإننى أومن بأن ثلة بعينها من البلاشفة بمقدورها تطبيق ما تم الوعد به فى مطلع الثورة. فالبلاشفة هم من أخمد نيران الحرب الكونية الأولى. والبلاشفة هم الوحيدون المناضلون لإعادة مقدرات القوميات المختلفة ومصائرها لأيدى أصحابها ليمتلكوا زمام أمرها. كذلك، فهم الوحيدون الذين أجلوا أسباب الحرب الكونية الثانية. البلاشفة هم من أعلن الحرب على الإمبريالية البريطانية المضطهدة للهند،

ومصر، وأفغانستان، وإيران، وشبه الجزيرة العربية. كذلك، فهم من رفعوا لواء المقاومة ضد الإمبريالية الفرنسية التى استعبدت المغرب والجزائر وغيرهما من البلدان العربية بإفريقيا. فكيف يستقيم ألا أنحاز إليهم؟ وانظر، فهم قد صرحوا بكلمات لم يتم التفوه بها من قبل، بل منذ نشأة الكون ذاته، على امتداد تاريخ الدولة الروسية. فتضامنا مع جميع مسلمى روسيا والشرق، أعلن البلاشفة وجوب أن تكون "اسطنبول" بأيدى المسلمين. وبينما كان ذلك موقفهم، كانت القوات البريطانية، والتى حاصرت أورشليم، تستميل اليهود بتلك الكلمات : "اجمعوا شتاتكم سريعا صوب فلسطين، فسوف ننشئ لكم فيها دولة أوروبية".

بيد أن ستالين والزعامات السوفييتية قد اعترضوا، فى النهاية، على فكرة "الحزب الشيوعى الإسلامى" على اعتبار كونه تواؤماً خطيراً وغير مقبول مع القوى القومية البورجوازية فى المجتمع الإسلامى. وفى هذا الإطار، أصرت موسكو على أن قيادة حركة كتلك يمكن فقط أن تكون من خلال حزب ينبنى على "وحدة البروليتاريا" – حتى وإن ندر وجود طبقة بروليتارية ضمن صفوف التتر الزراعيين والتجاريين. وهنا، أدرك سلطان غالييف حقيقة الأمر، وأيقن باستحالة مشاركة "الحزب الشيوعى السوفييتى" له فى رؤيته المقترحة. كذلك، فقد أضحى غالييف مؤمنا بأن المسلمين قد استبدلوا نوعا جديدا من الاضطهاد بموجب ما أطلق عليه "البروليتاريا الروسية" بالاضطهاد القيصرى السابق. وآمن غالييف أيضا بأن مصالح التتر لم تكن تتوافق مع مصالح الإمبريالية الروسية، وأن الشيوعية لم تحرر البلاد من الإمبريالية، بل قد أتت بشكل مغاير لها وإن بقى جوهرها قائما. وقد قام رجال ستالين بإلقاء القبض على غالييف، وتم إعدامه عام ١٩٤٠، فضلا عن إعدام عدة آلاف من القوميين الأتراك المسلمين.

إن سلطان غالييف يبقى مثالا واضحا وتجسيدا جليا لناشط شيوعى بارز، فضلا عن كونه منظرا ومتحدثا هاما باسم اليسار الإسلامى. فالأحداث التى أفضت إلى اتهامه، وسجنه، ونفيه، وتهميش دوره، وأخيراً إعدامه لتعطى دليلاً

دامغاً وبرهاناً ساطعاً للطابع "القومي" للثقافة الإسلامية حين تواجه بالإمبريالية الأوروبية، أو حتى السوفييتية. فالحقيقة أن ظاهرة خلاف سلطان غالييف مع ستالين، واعتناقه وتبنيه للمصالح "القومية" الإسلامية قد أطلق عليها اسم بذاته داخل الحزب الشيوعي، ألا وهو "السلطانغالييفية"، والتي دائما ما استحضرت الخوف الشيوعي من العناصر الكامنة التي تنطوي عليها "القومية" السائدة بين المجتمعات الإسلامية في روسيا. "ذلك، كما نرى، هو ما يحدث حين يسمح للقومية أن تحل محل الأيديولوجية الماركسية اللينينية" – كانت هي النغمة السائدة أو القول المكرر. فالسوفييت أنفسهم قد أمعنوا في الإلحاح، على نحو غير متعمد، على تحويل "الإسلام" إلى عنصر إثني. وقد قامت السياسات الأمريكية بما يشبه ذلك على نحو كبير خلال "الحرب العالمية ضد الإرهاب".

لذا، فوفقا للزخم الثوري للجماعة الإسلامية الروسية وقوتها في حمل رسالة شيوعية مناهضة للإمبريالية وتوجيهها للشعوب المضطهدة في الشرق، فقد باءت التجربة بفشل محقق ومنيت بخسائر فادحة : إذ بقي المسلمون على عداء محموم مع السياسات السوفييتية والاضطهاد السوفييتي للثقافة التركية المسلمة. وبحلول عام ١٩٢٦، ذهبت روسيا إلى كون الإسلام قوة مناهضة للبلشفية بالأساس، وقامت بتنظيم "اتحاد الملحدين" لتعزيز دعاية إلحادية ونشرها في صفوف الرعايا المسلمين لاجتثاث جميع المؤمنين من مناصب النفوذ والسطوة. وقد مثل نشر السوفييت للإيديولوجيا الإلحادية رسميا، واضطهادهم لجميع الديانات والعقائد – أكبر الخطايا وأفدحها، والتي يمكن أن يقترفها النظام السوفييتي وفقا لرؤية المسلمين. وقد سعى المسلمون لممارسة شعائرهم الدينية، وحماية تقاليدهم وأعرافهم، وذلك وفقا لأنماط سرية، فقد كانت الشبكات التي انتظمت الحركات والتجمعات الصوفية عظيمة النفع والفائدة في الإبقاء على بعض المعلومات بشأن الإسلام على قيد الحياة، خلال السنوات المظلمة للحكم السوفييتي.

وبينما قامت روسيا القيصرية بالترويج للدين كأساس للتنظيم السياسي

والاجتماعي للإمبراطورية، فقد سار الشيوعيون البلاشفة في الاتجاه المضاد تماما بسعيهم لاعتبار الجماعات الإثنية قاعدة لتنظيم الإمبراطورية السوفييتية وفقا لمبدأ "فرق تسد". فبدلا من التعامل مع إثنية تركية واسعة الانتشار، على سبيل المثال، أنشأ السوفييت جمهوريات سياسية مستقلة، بحيث يكون لكل لغة تركية قائمة جمهورية مستقلة ومنفصلة عن الأخرى، كاللغة الأوزبكية، والتترية، والكازاكية، والقيرغزية، والتركمانية، والآذربيجانية، ... وهلم جرا. وبذا، فقد صارت "الإثنية" الأداة المستخدمة لطمس الهوية الإسلامية، والقضاء على أية أفكار قومية ممكنة "للعالمية التركية الجامعة".

إن الصراع السوفييتي مع الإسلام قد اتخذ أبعادا جديدة فاعلة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وذلك مع غزو موسكو لأفغانستان عام ١٩٧٩ لدعم نظام شيوعي جديد هناك. وسرعان ما امتدت ثورة مسلحة على امتداد أفغانستان، لخوض "حرب مقدسة" باسم الإسلام ضد الغزو والاحتلال السوفييتي. ولقد رفد الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، حركات وجماعات "الجهاد الإسلامي" المناهضة للسوفييت، والتي نجحت في إجلائهم عن أفغانستان بعد ثمانية أعوام. إلا أن العديد من القوات هناك كانت بالفعل قوات سوفييتية مسلمة شعرت ببعض التناقض إزاء السياسات السوفييتية، والتي أعدت العدة وعقدت العزم لسحق حركة المقاومة الإسلامية. وفي أعقاب ذلك، ومع انسحاب السوفييت بعد هزيمتهم في أفغانستان، أعلن المجاهدون الأفغان، وكذلك المجاهدون من بلدان غيرها أن "الإسلام قد هزم قوة عظمى". وقد حققت الرسالة، وما تضمنته، هدفها لدى المسلمين الروس الذين لم يبتهجوا لفحواها.

لقد كان انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ نقطة تحول للمسلمين في الإمبراطورية السوفييتية. فسرعان ما حصلت خمس جمهوريات إسلامية على استقلالها "الكامل" كبلدان جديدة، على أساس إثني – وأغلبها "تركي"، بدرجة أو بأخرى. كذلك، تم منح الرعايا المسلمين الآخرين ممن استمروا في العيش داخل

حدود الدولة الروسية والتى تقلصت على نحو ملحوظ درجة عالية من الاستقلالية والحكم الذاتى وفق قواعد إثنية صارمة. إن الثورة والاضطرابات فى كثير من تلك البقاع، وبخاصة فى جمهورية الشيشان، قد أوضحت أن صراع الشيشان من أجل الاستقلال ... ذلك الصراع الممتد عبر ما يقرب من ١٥٠ عاما، والذى خيض باسم "الإسلام"، ما زال مشتعلا. وبينما يدرك كثير من المسلمين الذين بقوا فى روسيا أن الانفصال عنها غير مجد – وهم خليط من جزر إسلامية ذات إثنيات متعددة وسط بحر روسى متلاطم – فإنهم يعيدون الإسلام لمكانته البارزة وفق هوياتهم القومية، فى الوقت الذى يعلون فيه من شأن اختلافاتهم وتمايزاتهم الإثنية كذلك. إذ لا تنضوى تلك الجماعات الإسلامية الإثنية، فى واقع الأمر، تحت لواء الإسلام حتى ولو تمنى بعض الإسلاميين أن يكون الأمر كذلك.

ويبقى السؤال الأبدى بشأن مراتب الهوية هناك : هل تلك الشعوب إسلامية بالأساس، أم هى جماعات إثنية/قومية من التتر، والأوزبك، والكازاك، والطاجيك، ... وهلم جرا؟ أم هى جزء من جماعة تركية عالمية أشمل؟ أم هم مواطنون "روس"؟ والحقيقة أنها يمكن أن تكون أيا أو كلاً مما سبق، وذلك وفقا للأحوال، إذ لا تعد جماعات مغلقة. إذاً، فالهوية التى ستسود فى أية مرحلة زمنية ستعتمد على معطيات الأحوال المصاحبة.

ويدرك المسلمون، على امتداد العالم بأسره، أن الاتحاد السوفييتى قد اضطهد "الإسلام" على نحو كبير. وفى الوقت ذاته، فإنهم يقدرون الدور الرائد الذى اضطلع به لإحداث توازن جيواستراتيجى إزاء قوى الغرب الكولونيالية الإمبريالية. إن وجود الاتحاد السوفييتى، فى ذاته، كأحد قطبى القوى العالمية قد أتاح هامشا للحركة والمناورة للبلدان الأقل شأنا، الأمر الذى أسهم فى منع الدول الإمبريالية الغربية السابقة من بسط نفوذها على تلك البلدان. وقد استشعر العالم الإسلامى فزعا جراء انهيار الاتحاد السوفييتى، كما استشعرته أمم غير منحازة لقوة أو لأخرى – لكونها تفضل الشيوعية، وإنما لكون الانهيار جاء ليعنى نهاية العالم ثنائى القطب،

وليجعل البلدان الأقل شأنا أكثر عرضة، وانكشافا، وخضوعا لمشيئة القوة العظمى الوحيدة المتبقية.

الأورو/آسيوية

نختتم الفصل الحالى بنظرة على الأيديولوجية الأوروآسيوية : فقد انبثق من المناخ الاستراتيجى المتحول فى مرحلة ما بعد بوش، رفقاء جدد -روسيا، والصين، والمسلمون- يتقاسمون نهجا ورؤية مشتركة بشأن مناهضة الغرب وأمريكا. ومن الجلى أن مناهضة أمريكا ترتبط، بالأساس، بالبعد الجيوبوليتيكى، فيما لا ترتبط بالبعد الدينى إلا بنزر يسير. فهناك بوادر لتقارب محتمل بين العناصر الراديكالية ضمن صفوف المسلمين الروس، وبين بعض القوميين الإثنيين الروس تأسس جراء تشكك مشترك فى الغرب كقوة إمبريالية جديدة. على أن هذه الحركة لا تنتمى إلى التيار السائد، بيد أنه قد يكون لها عدة مسارات واتجاهات مهمة فى المستقبل.

وتوضح الظاهرة الأوروآسيوية بعض القضايا الرئيسية التى اشتمل عليها الكتاب : وجود اتجاهات مناهضة للإمبريالية والغرب ... اتجاهات بعيدة الغور لا تقف عند حد المسار الجيوبوليتيكى التاريخى فى الشرق الأوسط، بل تتعداه لتشمل القارة الآسيوية. فالاتجاهات الثقافية الروسية، والصينية، والإسلامية المتعددة تتباين بالفعل بقدر اندماجها وتلاحمها، إلا أن العداء المشترك للهيمنة، وكذا الكراهية المشتركة لأمريكا يعملان على التقريب ما بين تلك الاتجاهات.

وتمتد جذور الأوروآسيوية إلى الأفكار الروسية المبكرة ذات الطابع الآسيوى ... وهى مزيج من الأفكار المنطوية على التشكك فى نوايا الغرب، وكذا عدم الركون إليه. إذ توضح عالما بديلا للطموحات والثقافة الروسية من خلال حس صوفى بأن روسيا تمثل صيغة أكثر عمقا وأوفر روحانية مما يمثله الغرب. كذلك، فإنها تذهب إلى أن روسيا لها نصيب وافر من الأعراف والتقاليد الآسيوية يخولها أن تضطلع بدور بارز ومهمة فريدة فى مجريات أحداث التاريخ العالمى. كذلك، ترى

الأوروآسيوية أن روسيا أصدق وأوفى لهويتها وتقاليدها فى أى تحالف موجه ضد الهيمنة الغربية لإحداث انضباط بميزان القوة عالميا، ولخلق رؤية حياتية بديلة ..... عسى البيزنطيون أن يفخروا بذلك.

وقد ازدادت المخاوف الروسية من التطويق الغربى، حين بادرت الولايات المتحدة بقيادة جورج بوش الابن بإنشاء قواعد عسكرية لها فى أوزبكستان، وقيرغزستان، وجورجيا، وأذربيجان، وطاجيكستان فى إطار ما أطلقت عليه "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، وفى محاولتها لأن تضم لحلف شمال الأطلنطى (الناتو) أكبر عدد ممكن من جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق. ووفقا لوجهة النظر الروسية، فقد انطوى ذلك كله على استفزاز كبير، بل وعلى عدائية بالغة، فقد أدت المحاولات الأمريكية الحثيثة لإحلال قوتها ونفوذها على أعتاب الدولة الروسية إلى وجوب تفكير روسيا فى البحث عن مصادر جديدة للدعم الجيوبوليتيكى لمقاومة انتهاكات أمريكا الاستراتيجية. وقد مثل الشرق والعالم الإسلامى تلك المصادر الجديدة للدعم.

إن الرؤية الأوروآسيوية تمثل مزيجا من الأعراف والتقاليد الخاصة بالولع بالسلافية وعناصر من الأرثوذكسية الروسية ... ففى صيغتها العامة، تمتد تلك الرؤية لتشمل مجموعة كبيرة من الاهتمامات والمصالح لدى البلدان الإسلامية والصين، بل وحتى لدى كل من الهند واليابان. على أنه قد يبدو من المستغرب توقع تقارب أو تعاون بين أربع حضارات كانت، على امتداد أزمنة طويلة، خصما ومنافسا ومعارضا للإمبراطورية الروسية ... إلا أنه مقياس ومؤشر للتشكك فى الغرب –الولايات المتحدة حاليا– ودوافعه للسيطرة والهيمنة الدولية، ومن ثم سعى الأوروآسيوية لخلق مصالح جديدة لتحل محل الكراهية التى سادت فى البلدان الآسيوية الرئيسية.

وقد انبثقت الأوروآسيوية فى العقد الثالث من القرن العشرين، وانبنت على

جذور ممتدة من الولع بالسلافية. ويذهب الباحث "ديمترى شلابنتوخ" إلى أن الأوروآسيوية تؤمن بأن "روسيا هى مزيج فريد من الشعوب السلافية الأرثوذكسية والشعوب المسلمة، التركية بالأساس. لذا، فإن المسلمين الروس، لا السلاف بخارج روسيا، هم حلفاء روسيا الحقيقيون". كذلك، فالأوروآسيوية لا ترى أن روسيا جزء من أوروبا، بل باعتبارها قارة أوروآسيوية عنصراها الإثنيان الرئيسيان : الروسية والتركية. كذلك، فإن التعايش القديم والذى ما يزال قائما بين الأرثوذكسية الروسية والإسلام، والذى شهدناه فى الهيكل السياسى للإمبراطورية الروسية يجد تعبيرا عنه فى تلك الرؤية الجديدة. وبلا شك، لا يزال هناك إرث من الشكوك المتبادلة بين الأطراف المذكورة حيث لا يرغب أى طرف فى التخلى عن الهيمنة والسطوة للآخر. وعلى الصعيد الشعبى، ثمة آثار من مشاعر عميقة مناهضة للإسلام –بل وعنصرية– ما زالت تحيا فى المجتمع الروسى، إلا أن التقارب السياسى والجيوبوليتيكى الجديد المذهل بين تركيا وروسيا، على امتداد العقد الماضى، يدعم كثيرا من اتجاهات مدرسة الفكر الأيديولوجى المثيرة تلك. لذا، فقد انتشرت تلك الشكوك الجيوبوليتيكية القديمة تجاه الغرب، على نحو متواتر فى الشرق الأوسط، وذلك ضمن إطار الحضارات الثلاث : الأرثوذكسية البيزنطية، والأرثوذكسية الروسية، والإسلام – مع ما لثلاثتهم من جذور مشتركة... تلك كانت بعض الدلالات الموحية، بل والمقنعة، على كيفية تعامل "عالم بلا إسلام" مع الغرب إلى اليوم.

إن روسيا لا ترغب مطلقا فى أن تفقد شخصيتها التاريخية الفريدة ذات الجذور الأرثوذكسية، فالغرب لم يقبل روسيا يوما كجزء منه ... كما لا يمكن أن تكون وجهة روسيا الاستراتيجية صوب الغرب بمفرده، إذ ستستمر فى السعى لإيجاد شركاء ينتمون إلى الحضارات الشرقية بغية دعمها، وما يمثله ذلك من دليل على التزام روسيا بشخصيتها وطابعها الأرثوذكسى والأوروآسيوى. إن انخراط روسيا الراسخ فى منظمة "شنغهاى التعاونية" بين الصين وروسيا هو دليل آخر على ذلك التوجه الجيوبوليتيكى الذى يمتد ليشمل عدة بلدان بآسيا الوسطى، كما

ينهض كدليل على الاهتمام الكبير من قبل افغانستان، وإيران، وباكستان، وتركيا. إذا، تطغى الاعتبارات الجيوبوليتيكية على الاعتبارات الدينية – "فالإسلام"، وفقا لهذا المنظور، هو أشبه ما يكون بطبقة رقيقة للغاية تزدان بها الكعكة الجيوبوليتيكية الكبيرة ... إذ تتأثر الاعتبارات الأيديولوجية كثيرا بالمخاوف من الغرب ونفوذه، والتشكك فى نواياه، وهو الأمر عميق الغور فى مسارب التاريخ.

وتظل روسيا، وفقا لعقيدة أوروآسيوية واضحة أو بدونها، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشرق الأوسط لتقديم نفسها باعتبارها صديقا للعالم الإسلامى بغية نيل التأييد وحشد الدعم ضد الهيمنة الأمريكية وتوغلها فى آسيا، وكذلك لتجنيد رعاياها من المسلمين واستغلالهم لتحقيق الغرض ذاته، فضلا عن محاولة استرضائهم واستيعابهم فى الفيدرالية الروسية الناشئة. ولعل الروابط القوية فيما بين روسيا وإيران، ودعم روسيا لها تعد مؤشرات قوية على ذلك الانخراط، كما هى الحال تماما بشأن روابط روسيا المتينة مع تركيا على امتداد العقد المنصرم. إن ما ينطوى عليه الموقف من سياسات سيسهل إدراكه من قبل الإيرانيين والشعوب السامية حين إعادة التفكير فيما حدث من دفاع عن إقليم الشرق الأوسط ضد انتهاكات "الإسكندر الأكبر" فى اليونان، أو ضد الهجمات الشرسة للإمبراطورية الرومانية فى الإقليم الأوروآسيوى. وقد لحق الإسلام بالركب وانضم للقافلة. فأيا ما كانت طبيعة العلاقة المركبة ما بين روسيا و"الإسلام"، يكون من الصعوبة بمكان أن ننظر إليها على كونها إحدى "حدود الإسلام الدموية".